أثر الشعر الجاهليّ في شعر الجواهريّ

المدرس الدكتور
غانم كامل مسعود

أثر الشعر الجاهليّ في شعر الجواهريّ

المدرس الدكتور

غانم كامل مسعود

المقدمة

يعد شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري امتدادًا طبيعيًّا لفحول الشعراء العرب، وعمالقة الأدب العربي منذ عصور الفصاحة أيام كانت اللغة تؤخذ مشافهة من أعراب البادية، إذ نجد في شعره الألفاظ العربية الصحيحة الفصيحة، والدقيقة في مدلولها الذي وضعت له، والمعاني الجزلة، والصور الأدبية الجميلة التي اعتدنا أن نجدها عند صفوة شعراء العربية الأوائل ومتقدميهم في الزمن والرتبة، وكأن شيئا من أرواحهم تسلل مختزلا تقادم القرون وتعاقب الأجيال لينساب بهدوء وخفة في ذاك الجسد النحيل، الذي ضم بين جوانحه تلك الروح العربية المتمردة .

لذا لم يلق الباحث من سفره نصبًا وهو يبحث في تلك الآثار، وفي وديان القول الساحرة عن دلائل تشير إلى ترسم الجواهري خطى الشعراء الجاهليين، لكثرة هذه الدلائل، ووضوح معالمها . وبناءً على هذا فقد قسم بحثه على خمسة محاور :

1- تعقبه ألفاظ الجاهليين ومعانيهم .
2- الشخصيات الأدبية الجاهلية، وأثرها في شعره .
3- الأمثال الجاهلية .
4- الوقائع والشخصيات التاريخية .
5- الطلل والمكان .

ويختم البلحث بحثه هذا بذكر أهم نتائجه .

1.تعقبه ألفاظ الجاهليين ومعانيهم :

يدلُّنا ديوان الجواهري على حقيقة لا يمكن إنكارها هي اعتماده على موروث ثقافي ثري، وعاه الشاعر من خلال قراءته للشعر القديم، واطلاعه الواسع على كتب اللغة والنحو والبلاغة، فهو يتعقب الألفاظ والمعاني والصور التقليدية المألوفة لدى الشعراء القدامى من الجاهليين ومن تلاهم، ليوظفها في شعره، " ونحن نعلمُ كثيرًا أنَّ الشاعر قد قرأ وحفظ كثيرًا من هذا الموروث ... وأعجب باللغة تركيبًا ومفردةً، وتمرَّس فيها، وحفظ منها الكثير " [1] . فهو يرى أنَّ الكلمة النافذة الصالحة الباقية تجربةٌ قاسيةٌ ومراسٌ متمكِّنٌ، ومعاناة شاقة، "وهذا الأسلوب اقتضاه النظر الدائب والجهد الممضّ

ومعاناة المظان والأسفار . ومن قرأ شعر الجواهري وجد أثر هذه الطريقة المضنية ماثلة لعينيه " [٢] . ففي قوله :

وقرْنَ بصدْرٍ كالمقابر مُوحشٍ ولُحْنَ بوجهٍ كالأثافيِّ سافِع [٣]

تابع فيه قول زهير بن أبي سلمى :

أثافي سفعًا في معرس مرجلٍ ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلمِ [٤]

فالأثافي السفع، وهي أحجار سود توضع عليها القدر إذن صورة جاهلية، كانت لا تفارق ذهن العربي البدوي الذي كان يترك هذه الأحجار السود خلفه ويرتحل بحثا عن مكان معشب آخر، وهذه الصورة غير مألوفة في البيئة الحضرية التي عاشها الجواهري مطلع القرن الماضي في النجف الأشرف، فالناس آنذاك كانوا يستعملون مناصب من حديد يضعون عليها القدر وليس الأسافي . ولكن الشاعر آثر أن يحيي الموروث على أن يستنبط صورا جديدة . وهو يصور كوامن الحقد والإثم والنقمة التي كانت تعصف بقلبه آنذاك بصور شتى منها هذه الصورة التقليدية، وهذا ما يشي به السياق :

ومكبوتةٍ لم يشفع الصَّفحُ عندها مددتُ لها من أناةٍ بشافعِ
غزتْ مهجتي حتى ألانت صفاتها ولاثت دمي حتى أضرَّت بطابَعي
رَبَت في فؤادٍ بالتشاحنِ غارقٍ مليءٍ، وفي سُمِّ الحزازاتِ ناقعِ
كوامنُ من حقدٍ وإثمٍ ونَقمَةٍ تَقَمَّصْنَني يرقُبْنَ يومَ التراجعِ [٥]

وفي قوله :

حتى إذا حميت وغىً وأدارها كأسا (إياس) مُرَّة و (عصام)
وتلقَّفته م كالرحى أشداقها مضر غًا همـ امٌ يقتضيه همـ امُ [٦]

فهو يصف الحرب بهذا الوصف (الرحى)، وهذه الصورة جاهليَّة استخدمها الشاعر زهير بن أبي سلمى في معلقته بقوله :

وما الحربُ إلا ما عرفتُمْ وذُقتُمُ وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ
فتعرككم عرك الرَّحى بثفالها وتلقحْ كشافًا، ثُمَّ تنتج فتتئمِ [٧]

وفي قول الجواهري :

فمنها الذي فوق الجبين لوقعه يدٌ ويدٌ بين الحشا والأضالع [٨]

الذي يصف فيه ذكرياته التي تبارحه جيئة وذهابا وظف فيه تركيبا بعد أن تصرف فيه تصرفا بسيطا هو (بين الحشا والأضالع) نجده عند عنترة بن شداد العبسي :

فولّوا سراعًا والقنا في ظهوره م تشك الكلى بين الحشا والخواصر [٩]

وقول الجواهريّ :

وإنّي وإنْ لمْ يبقَ قولٌ لقائلٍ ولَمْ يترك الأقوامُ من متودَّمِ [١٠]

تابع فيه عنترة في مطلع معلقته :

هـلْ غـادر الشـعراء مِن متـردِّمِ أم هلْ عرفت الدَّار بعـد تـوهُّـمِ [١١]

وهو هنا يتفق معناه ومعنى بيت عنترة في اللفظ والمعنى، ومجمل المعنى الذي قصده عنترة أنَّ الأول لم يترك للآخِر شيئا، وقد سلك في الوصول إلى هذا المعنى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ، غير أنَّ الجواهري وظف الأسلوب الشرطي لتسجيل إضافة على معنى عنترة، وجعل جواب الشرط في البيت التالي :

فلا بُـدَّ أنْ أبكـيكَ فـيمـا أقُصُّـه عليك مـن الوضع الغريب المذمَّمِ [١٢]

ولكن بيت عنترة يبقى أكثر رصانة وسيرورة من بيت الجواهريّ ؛ لأنَّ معنى الأول تمَّ بنفسه، ولم يحتج إلى بيت بعده لإتمام معناه، وقد قال البغدادي في هذا : " خير الشعر ما لم يحتَجْ بيتٌ منه إلى بيتٍ آخر" .[١٣]

وفي قول الجواهريّ :

(معــ روف) لكــ نت تعـ بُّ م ـن ضنـــكٍ وف ـكـــرٍ في غديرِ
أنا منهمـــا أســـقي وأشـــ ـــ ربُ بالصـــغير وبالكـــبيـــر [١٤]

أفاد فيه من قول المنخل اليشكريّ[١٥]:

ولقـــد شـــربت المدامـة بـالصـــغير وبالكـــبيـــر

والشاعر هنا أضاف على معنى المنَخَّل الذي اقتصر على الشُّرب بدلالة (شربت المدامة) . والمعنى المضاف كما هو واضح من بيت الجواهري قوله : (أسقي وأشرب...) هذا من جانب ومن جانب آخر خرج الشاعر عن المعنى الحقيقي للشرب إلى المعنى المجازيّ .

2. الشخصيات الجاهلية و أثرها في شعر الجواهري :

كانت الشخصيات الجاهلية حاضرة في شعر الجواهري، ومنها زهير بن أبي سلمى، الشاعر الجاهلي :

نأت بي قرون عن زهير وردَّني على الرغم مني علمه بالطبائع [١٦]

كذا جاء ذكر علقمة الفحل، والشنفرى في قوله :

برغـم الإباء ورغـم العلـى ورغم أنـــوف كـرام المـلا
ورغـم القلوب التي تسـتفيـ ـض عطفا تحوطك حوط الحمى
بـ(علقمة الفحل)أزجي اليمينَ أنِّـــي ألـــذ بمُـــرِّ الجـنـــى
وبـ (الشنفرى) أنَّ عينـيَّ لا تلذَّان فـي النـوم طعـم الكـرى [١٧]

فهو يقرن نفسه بأولئك الشعراء الذين عاشوا خشونة البداوة، ولم ينعموا بحياة القصور، وليونة المدن ، ويهزأ ممن يهدده ويتوعده ؛ إذ ليس عنده من النعيم ما قد يخسره، ليس عنده سوى ما يحتضنه بين جوانحه من إباء وشمم، وهو القائل:

بمـاذا يخـوفنـي الأرذلـون ... ومِم تخـاف صـلال الفلا؟! ونفـحُ
أيسـلب عنهـا نعيم الهجير ... الرمـال، وبذخ العـ ـرا !!
بلى إن عندي خوف الشجاع ... وطيـش الحليـم ومـوت الـردى[١٨]

وقوله :

أخافُ أبا قابوس أنْ لا يسـرهُ ... لساني ولايرضيه شكلي ولا حالي
أبعدَ أبـن ذبيـان زيادٍ لسـانه ... ونـابغةٍ يصـغي ليسـمع أقـوالي
ولو أنَّ زيـادًا والمنخَّـل راجعًا ... زماني لما جاءا براءٍ ولا دالِ [١٩]

وهو في هذه الأبيات يشير إلى طائفة من الشخصيات الأدبية الجاهلية هي: (النابغة الذبياني، والمنخل)، فيؤكد ارتباطه الأدبي بها .

وهو إذ يتشرب الحياة الناعمة في براغ عاصمة تشيكوسلفاكيا السابقة، حيث الماء، والخضرة، والوجه الحسن، يتمنى أن يكون معه أسلافه الجاهليون ليروا ما يرى، وهو يتأوَّه على طرفة بن العبد الذي عدَّ في معلقته ثلاثا هن من عيشة الفتى العربي في صحرائه المترامية الأطراف، ويعرض بدلها ثلاثا غيرها حين يقول :

آهٍ علـى (ابـن العبـد) إذ ... يتربَّصُ اللهـوَ اشـتفافـا
يهوى (الطِّرافَ) و(بهكنًـا) ... بضًّا وأنْ يحمي المضافا
لو عاد لاختصرَ المسـافا ... لدَنًّا، وحيًّا، واستضافـا
لـرأى لـه وسـطَ الجبـا ... لِ الخُضْر من ثلجٍ طِرَافا
لاعتاض عن حلبِ العصير ... مشـى بـه علـجٌّ ودافـا
حَـلبًـا تـقَطَّـر مـن شـفا ... هِ الغيدِ تُعْتَصَـرُ انتزافـا
وعلى (البهاكن) كـلَّ رُودٍ ... تُسْـرِجُ الليـلَ الغُدافـا [٢٠]

ويشير في أبياته هذه إلى أبيات طرفة :

ولـولا ثلاث هـنَّ من عيشـةِ الفتى ... وجدِّكَ لمْ أحفَلْ متى قامَ عُوَّدي
فمنهـنَّ سَـبـْقُ العـاذلاتِ بشُـرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ متى ما تُعَلَّ بالماءِ تُزْبِدِ
وَكَـرِّي إذا نـادى المُضـافُ مُحنِّبًا ... كَسـيدِ الغضـا نـبَّهْتَـهُ المتـوَرِّدِ
وتقصِيرُ يومُ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجبٌ ... ببهكنَـةٍ تحت الطِّرافِ المُمَدَّدِ [٢١]

ولم يكن شاعرنا موفقا هنا بمجاراة ابن العبد في انتقاء المعاني واقتناص الصور، فطرفة الذي كشف لنا الصور، وأحسن اختيار البحر الطويل، الذي ساعده على إحكام صنعته، في حين اختار الجواهري مجزوء الكامل، والمجزوء أقصر نفسًا من سواه، ولا يعدو عمل الشاعر عن الوقوع على الأنموذج والاتكاء عليه ؛ لأنه وجده وفيا بالغرض المراد منه، وأمثال هذا الاتكاء على الموروث مألوفة لدى الشاعر، وقد أحصى منها الدكتور علي عباس علوان أمثلة أخرى.[٢٢]

3. الأمثال الجاهلية وأثرها في شعر الجواهري :

كثيرا ما ارتبط الشعر بالمثل، وقد أشار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى هذه الصلة بقوله : " خير الشعر ما كان مثلا، وخير الأمثال ما لم يكن شعرًا " [٢٣]،

وكثيرا ما استعان الشعراء بالأمثال القديمة التي تمثل جزءا من الموروث اللغوي والأدبي للأمة . ولم يكن الجواهري بدعًا من غيره ؛ لذا فقد التفت إلى الأمثال العربية القديمة ليؤكد ارتباطه بموروث أمته، واهتمامه به . وقد كان أستاذنا الدكتور علي ناصر غالب قد ذكر في كتابه (لغة الشعر عند الجواهري) طائفة من هذه الأمثال التي وظفها الشاعر، وأشار إلى طائفة أخرى [٢٤]، فآثرت هنا ذكر الأمثال العربية التي لم يذكرها أستاذي الدكتور غالب :

وقد وردت الإشارة إلى الأمثال في شعر الجواهري . قال :

واكتبوها صفحةً إن ذكرَتْ كنتمُ الأمثالَ فيها والمثالا[٢٥]

وهو قد يجمع المثلين في بيت واحد ؛ لقربهما من بعضهما في الدلالة . نحو قوله :

نسجوا نسيج العنكبوت وماهمُ منه بليلةِ حاطبٍ عشواءِ [٢٦]

أشار فيه إلى مثلين عربيين هما قول العرب " أخبط من حاطب ليل " [٢٧]، وقولهم : " أخبط من عشواء "[٢٨]

أهون من ذبابةٍ في مستَحَمٍّ قذر [٢٩]

قوله (أهون من ذبابة) فيه تضمين لمثل جاهليّ مأثور [٣٠]

وقوله :

نلوذ به من صولة الظلم كالذي يفِرُّ من الرمضاء بالنار يحتمي [٣١]

فيه إشارة للمثل العربي القديم : (كالمستغيث من الرمضاء بالنار) [٣٢]. وهذا المثل مأخوذ عن قصة مقتل كليب إذ إنه لما طعن جساس كليبا ودَقَّ صُلْبه ثم وقف عليه فقال : يا جساس اغثني بشَرْبَة ماء . فقال جساس : تركْتَ الماء وراءك وانصرف عنه ولحقه عمرو فقال : يا عمرو أغثني بشربة، فنزل إليه فأجْهَزَ عليه فضرب به المثل فقيل :

المستجِيرُ بَعْمرٍو عند كربته كالمستجير من الرَّمْضَاء بالنار

وقول الجواهري :

تُحاكُ له الدسائسُ تحتَ ليلٍ من الشحناءِ داجي الطيلسانِ [٣٣]

وقد وظف فيه المثل العربي : (أمْرٌ سُرِيَ عَلَيْهِ بِلَيْلٍ) [٣٤]، قد علق على هذا المثل أبو هلال العسكريّ بقوله : "يضرب مثلا للأمر قد تقدم فيه وسبق إلى إبرامه والعامة تقول أمر عمل بليل ومثله قول عنترة :

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركابكم بليل مظلم " . [٣٥]

وقول الجواهري :

نامي ولا تتجادلي القول ما قالت حذامِ [٣٦]

وظف فيه المثل العربي : (القَوْلُ مَا قَالتْ حِذَام) أي القولُ السديدُ المعتدُّ به ما قالته، وهو مثل يضرب في التصديق " قَال ابن الكلبي : إن المثل لُلجَيْم بن صَعْب والدِ حنيفة وعِجْلٍ وكانت حَذَام امرأته فَقَال فيها زَوجها لجيم :

إذَا قَالتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا فَإنَّ القَوْلَ مَا قَالتْ حَذَامِ " [٣٧]

وقول الجواهري :

شدنا الحياة، وكوفئنا الممات كما شادَ (الخورنقَ) كي يردى (سنمَّارُ)[٣٨]

فيه إشارة واضحة إلى المثل العربي (جزاء سِنِمَّار)

" أي جَزَاني جزاءَ سنمار وهو رجل رومي بَنَى الخَوَرْنَقَ الذي بظَهْر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فَخَرَّ ميتاً وإنما فعل ذلك لئلا يبني مثلَه لغيره فضربت العرب به المثلَ لمن يجزي بالإحسان الإساءة قال الشاعر :

جَزَتْنَا بنو سَعْد بحُسْن فَعَالِنَا ... جَزَاء سِنِمَّارٍ وما كانَ ذَا ذَنْب "[٣٩]

وقول الجواهري :

وإذا بحكم الأخرقين كما انبرت حمقاءُ تنقضُ غزلَها خرقاءُ[٤٠]

وظف فيه قول العرب : " خرقاء وجدتْ صوفًا " [٤١]، وقولهم : " أخْرَقُ مِنْ نَاكِثَةِ غَزْلِها " [٤٢].

وقول الجواهري :

تَسَرَّبَ همسٌ أنَّ فقعًا بقَرْقَر يعيدُ شِرَاكًا للهِزَبْرِ وينصِبُ[٤٣]

ضمن فيه المثل العربي " أَذَلُّ مِنْ فَقْعٍ بِقَرْقَرَةٍ " [٤٤]

وقول الجواهري :

ويا صحابي وللفصحى حلاوتُها لا تنكروا ناقلا تمرًا إلى هَجَرِ[٤٥]

ذكر فيه المثل العربي : " كَمُسْتَبْضِعِ التَّمْر إلى هَجَرَ " ؛ وذلك أن هَجَرَ معدنُ التمر والمستبضع إليه مخطئ . قَال أبو عبيد : هذا من الأمثال المبتذلة ومن قديمها .[٤٦]

وقول الجواهري :

لا تقبسوا جمرة العجلانِ واتَّئدوا فطالما سبقَ العجلانُ متَّئدُ[٤٧]

وردت فيه صورةٌ قد يُخَيَّلُ للمتلقي أنها جديدة، وهي (جمرة العجلان)، ولكنها في الواقع مأخوذة من مثل عربي هو قولهم : " كالقَابِسِ العَجْلاَنِ "[٤٨] ؛ والقبس : أخذ النار . ويضرب هذا المثل لمن عجل في طلب حاجته .

4. الوقائع والشخصيات التاريخية وأثرها في شعر الجواهري .

ذكر الجواهري في شعره جملة من أيام العرب قبل الإسلام ووقائعهم وطائفة من شخصياتهم التاريخية .

ومن الأيام العربية التي جاء ذكرها في شعره قوله :

إذ الذؤابة من (غسان) تنضحها يوم السباسب بالأطياب أطيارُ[٤٩]

ورد ذكر (يوم السباسب)، وقد ذكر الدكتور جواد علي أنَّ يوم (السباسب) كان عيدًا لقوم من العرب في الجاهلية وكانوا يحيون فيه بالريحان . وأنه قد جاء ذكره في شعر النابغة في قوله :

رقاق النعال طيّبٌ حُجُزاتهم ... يحيّون بالريحان يوم السَّباسِبِ

وهو عيد من أعياد النصارى، كما أشار إلى ذلك أهل الأخبار. إذ ذكروا أنه عيد للنصارى ويسمونه يوم الشعانين .[٥٠]

وقد ورد ذكر طائفة من الشخصيات التاريخية في شعره، ومنها شخصية ملك الحيرة النعمان بن المنذر ؛ وجديرٌ بالذكر أنَّ شاعرنا الكبير لم يذكر تلك الشخصيات العربية التاريخية لينبئ المتلقي بمدى معرفته بتاريخ أمته ؛ بل هو كثيرًا ما يذكرها في موارد المقارنة بين ماضي العرب وحاضرهم، متحسراً على ما آل إليه حالهم، وهذا جليٌّ في قوله :

بلاذُك يا نعمان سلْ كيف أصبحت فغيرك عنها اليوم ليس بسئالِ[٥١]

فهو يفخر بذلك التاريخ على ما فيه من جاهلية، إذ إنه لم يخلُ من قادة غُيُر على أمتهم.

والشاعر يفتقد محاسن أخلاق قومه، فها هو ينعى تبدل الأخلاق، وانحسار الكرم العربي العتيد، عندما يستذكر سراة العرب في الجاهلية ومنهم (حاتم الطائيّ) قال :

دال الزمــانُ وبُــدِّلت نظمٌ بــه ولكـلِّ عصــرٍ دولــةٌ ونظامُ
ومضى الحُداة (بحاتمٍ) وبرهطه وتبـدَّلَــت لــمكارمِ أحـــكامُ
فهُمُ وقد حلبوا الصريـحَ أماجـدٌ وهمُ وقد عقروا الجَزور كرامُ[٥٢]

و(حاتم) هو حاتم بن عبد الله بن سَعْد بن الحَشْرَج كان جواداً شجاعاً شاعراً مُظَفراً إذا قاتل غَلَب وإذا غنم نهب وإذا سُئل وهب وإذا ضَرَب بالقِداح سَبَق وإذا أسَرَ أطلق وإذا أثْرى أنفق .

والشاعر قد يصرح بذكر تلك الأسماء، وقد يكني عنها، نحو إشارته إلى يومي النعمان بن المنذر ملك الحيرة وهما يوم السعد ويوم البؤس بقوله :

أفي يوم بؤسٍ أم نعيم زيارتي إليك لقد خاطرت بالنفس والمالِ[٥٣]

ويؤكد تواصله الفكري والعاطفي بالشخصيات التاريخية العراقية الموغلة بالقدم بقوله :

هنا مشى الفـذ "بانيبال" مزدهيـا في مـوكـبٍ بغـواة الفـنِّ مزدانِ
لَلآن يُجتاحُ في إصــلاح مملكـةٍ نظــام دولــة آشــور وكـلـدان
هنا "حمورابي" سنَّ العدْلَ معتمدًا به على حـفـظ أفـرادٍ وعمرانِ [٥٤]

وذكر شخصيتين تاريخيتين مهمتين هما ملك كندة، وملك الحيرة، حين مدح ملكًا معاصرًا هو الملك الهاشمي الحسين بن طلال مصبّرًا ومذكرًا إياه بأسلافه من ملوك العرب وما لاقوه من شدائد حين قال :

وقبلك غمَّت عزَّةٌ ربَّ كِندة وشرَّد صون العرض ربَّ الخورنقِ[٥٥]

ولم يفت الشاعر ذكر شخصية عربية أخرى هي شخصية الملك العربي الأبرش . قال

هَدَرًا ضيَّعته مثل دم الـ ـملك (الأبرش) لمَّا ضُيِّعا [٥٦]

والأبرش هو جذيمة بن مالك ابن فهم بن غانم بن دوس الأزدي . [٥٧]

5. الطلل، والمكان :

صرَّح الجواهريّ بالطلل في شعره، والوقوف على الأطلال كما هو معروف تقليدٌ جاهليٌّ ما فتيء شعراء العربية على اقتفائه، والالتزام به، والجواهري يترسم خطى القدماء ؛ بل يحلو لبعضهم أحيانا عدَّه فنيًّا منهم، إذ وصفه الدكتور جلال الخياط بأنه " شاعر عباسيٌّ أخطأه الزمن ... ووجوده في القرن العشرين يمثل ظاهرة غريبة "[٥٨].

وهو يصرح بالطلل في قوله :

وقفت عليه وهو رمةُ أطلالِ أسائله عن سيرة العُصُرِ الخالي [٥٩]

وقوله :

والعافيات من الضحا يا مثلما عفت الطلول [٦٠]

وهو يرتبط بالزمان والمكان، بدلالتيهما على الحاضر والماضي :

وهاهو يرى أهرام مصر بحاضرها، فتعيد إليه صورة ذلك التاريخ الموغل في القدم:

أهرام مصر قد بناك لغاية فرعون ذو الأوتاد حين بناكِ [٦١]

وقال في وصف الحيرة القديمة، بلد المناذرة :

مهيِّجُ بلبال (المناذرة) الأولى بأنَّك هجت اليوم بالحزن بلبالي [٦٢]

ومن الأماكن التي ذكرها في شعره : (الحلة الفيحاء، والنجف [الغريَّان]، وبابل القديمة) حين قال :

خذوا بما ضمَّت "الفيحاءُ" من غُرَرٍ مُخــلّداتٍ وما ضـمَّ الغريَّــانِ
هـنـا "بـبـابـل" قـامَ الفـنُّ تسـنُـده حضارة المُلك من أزمان أزمانَ [٦٣]

ولم يفته أن يشير إلى نينوى القديمة من عهد سنحاريب، وقد قال فيها :

من عهد سنحاريب إذ نينوى يتوِّج الحكمة منها النظام [٦٤]

وورد ذكر أرض الكنانة في شعره حين قال :

قُم والتمس أثر الضريح الذاكي وسَلِ الكنانة كيف مات فتاكِ

وسَلِ الكنانةَ مَن أصابك غِرَّةً واستلَّ سهمَكَ غيلة فرماكِ [٦٥]

ومن الأمكنة التي جاء ذكرها في شعره (جِلَّق) . قال :

عَوَّذتُ (جِلّقَ) بالضَّحايا جُمَّة من كيد همَّازٍ بها مشَّاءِ [٦٦]

وجِلَّقُ: بكسرتين وتشديد اللام وقاف ...اسم لكورة الغوطة كلها، وقيل بل هي دمشق نفسها، وقيل جلق موضع بقرية من قرى دمشق .[٦٧]

ومن الأمكنة التي ذكرت في شعره : (طور سيناء) . قال :

سِرْ في جهادك علَّ جذوةَ قابسٍ من طورِ سيناءَ تقبسُ الصحر اءِ[٦٨]

وجاء ذكر الكوفة والبصرة في قوله :

وأنَّ (كوفانًا) و (بصرةَ) منهما كانت إلى الأممِ الحياة تُصَدَّرُ [٦٩]

وليس أدلُّ على التزام الشاعر بصون القديم وإحيائه من استعماله الأسماء القديمة للمدن العربية، فهو في البيت المتقدم آثر اسم (كوفان) على اسم الكوفة، ولاسيما أنه يصف ماضي العراقين (الكوفة، والبصرة) لا حاضرهما، بدلالة الفعل (كان) .

الخـــاتمـــة:

ونحن نصل إلى نهاية المطاف في هذا البحث نذكر هنا أهم نتائجه :

يدلُّنا ديوان الجواهري على حقيقة لا يمكن إنكارها هي اعتماده على موروث ثقافي ثري، وعاه الشاعر من خلال قراءته للشعر القديم، واطلاعه الواسع على كتب اللغة والنحو والبلاغة، فهو يتعقب الألفاظ والمعاني والصور التقليدية المألوفة لدى الشعراء القدامى من الجاهليين ومن تلاهم، ليوظفها في شعره ؛ والاتكاء على الموروث يمثل ظاهرة مألوفة لدى الشاعر، وقد أحصى الباحث منها أمثلة ضمنها بحثه .

كانت الشخصيات الجاهلية حاضرة في شعر الجواهري، ومنها زهير بن أبي سلمى، وعلقمة الفحل، والشنفرى ، والنابغة الذبياني، والمنخل، وطرفة بن العبد، و هو يقرن نفسه بأولئك الشعراء الذين عاشوا خشونة البداوة، ولم ينعموا بحياة القصور، وليونة المدن، فيؤكد ارتباطه الأدبي بها .

وكثيرا ما استعان الشعراء بالأمثال القديمة التي تمثل جزءا من الموروث اللغوي والأدبي للأمة . ولم يكن الجواهري بدعًا من غيره ؛ لذا فقد التفت إلى الأمثال العربية القديمة ليؤكد ارتباطه بموروث أمته، واهتمامه به .

ذكر الجواهري في شعره جملة من أيام العرب قبل الإسلام ووقائعهم وطائفة من شخصياتهم التاريخية . وجديرٌ بالذكر أنَّ شاعرنا الكبير لم يذكر تلك الشخصيات العربية التاريخية لينبئ المتلقي بمدى معرفته بتاريخ أمته ؛ بل هو كثيرًا ما يذكرها في موارد المقارنة بين ماضي العرب وحاضرهم .

صرَّح الجواهريّ بالطلل في شعره، والوقوف على الأطلال كما هو معروف تقليدٌ جاهليٌّ ما فتيء شعراء العربية على اقتفائه، والالتزام به، والجواهري يترسم خطى القدماء ؛ بل يحلو لبعضهم أحيانا عدَّه فنيًّا منهم .

هوامش البحث

(١) تطور الشعر العربي الحديث في العراق، اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج، د. علي عباس علوان، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية 1975م : 315 .
(٢) نقد الشعر في العراق بين التأثرية والمنهجية (رؤية في تطور النَّصّ النقدي)، د. عناد غزوان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1999م : 83 .
(٣) ديوانه (أجب أيها القلب): 3/ 397 الأعمال الكاملة ط2، بغداد 2008م .
(٤) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، حجر عاصي : 106، وشرح المعلقات للزوزني : 63 .
(٥) ديوانه: 3/ 397.
(٦) ديوانه (يوم الشهيد) 3/ 512 .
(٧) ديوانه : 109، وشرح المعلقات السبع للزوزني : 69 – 70 .
(٨) ديوانه (أجب أيها القلب): 3/ 396 .
(٩) شرح ديوان عنترة، عباس إبراهيم : 64 من قصيدة (وكيف أنام الليل) .
(١٠) ديوانه : 2/ 267 .
(١١) شرح ديوان عنترة، عباس إبراهيم : 130، وينظر : شرح المعلقات السبع للزوزني : 116 .
(١٢) ديوانه : 2/ 267 .
(١٣) خزانة الأدب، للبغداديّ : 2/ 289.
(١٤) ديوانه: 4/ 609.
(١٥) المنخل بن عبيد بن عامر، من بني يشكر، وهو قديمٌ جاهلي، وكان يشبب بهندٍ أخت عمرو بن هند وكان المنخل يتهم بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر، وكان أيضاً يتهم بامرأةٍ لعمرو بن هند، وكان جميلا.
وهو القائل:

ولَقَدْ دَخَـلْتُ على الفتَا ... ةِ الخِدْرَ في اليَوْمِ المَطيـرِ
الكـاعبِ الحَـسْنَاءِ تَرْ ... فُلُ في الدمَقْس وفي الحَرِيرِ

فَدَفَعْتُـهـا فَتَدَافَعَـتْ ... مَشْيَ القَطـاةِ إلى الغَدِيـرِ

وعَـطَـفْتُـهـا فَتَعَطفَتْ ... كَتَعَطـفِ الظـبْيِ الغَرِيرِ

فَتَرَتْ وقـالَتْ: يا مُـنَ ... خِّلُ ما بِجِسْـمك من فُتُورِ

ما شَفَّ جِسْمِي غَيْرُ حُـ ... بِّكِ فاهْدِئِـي عَنِّي وسِيرِي

ولَقَدْ شَرِبْتُ منَ المُـدَا ... مَةِ بالصَّغيـرِ وبِالكَـبِيـرِ

الشعر والشعراء : 1/ 82 .
(١٦) ديوانه (أجب أيها القلب): 3/ 398 . وفيه إشارة إلى بيت زهير:
ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم .

(١٧) ديوانه (المقصورة) : 3 / 476، 477 .
(١٨) ديوانه (المقصورة) : 3 / 478.
(١٩) ديوانه (على أطلال الحيرة) : 1/ 107 – 108 .
(٢٠) ديوانه : 5/ 898 .
(٢١) شرح المعلقات السبع للزوزني : 52.
(٢٢) ينظر : تطور الشعر العربي الحديث في العراق : 266 – 269 .
(٢٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد : 20/ 336.
(٢٤) ينظر : لغة الشعر عند الجواهري، الدكتور علي ناصر غالب، توزيع دار الصادق، العراق – بابل 1426هـ - 2005م : 175-177 .
(٢٥) ديوانه : 3/ 492 .
(٢٦) ديوانه: 4/ 674.
(٢٧) ينظر : مجمع الأمثال للميداني : 1/ 261 . وهذا المثل ورد في موضع آخر من شعر الجواهري، كان قد أشار إليه الدكتور علي ناصر غالب . ينظر : لغة الشعر عند الجواهري : 176 .
(٢٨) جمهرة الأمثال : 1/ 441 .
(٢٩) ديوانه : 2 / 283 .
(٣٠) ينظر : مجمع الأمثال للميداني : 2/ 409 .
(٣١) ديوانه : 2 / 267.
(٣٢) ينظر : مجمع الأمثال للميداني : 2/ 149. يضرب في الخلتين من الإساءة تجمعان على الرجل (لا يفيد هذا الكلام هذا المعنى بل يفيد أنه يضرب لمن هرب من خلة مكروهة فوقع في إِشد منها وقَال الشاعر :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار .)

(٣٣) ديوانه: 2/ 283 .
(٣٤) ينظر : مجمع الأمثال : 1 / 30 .
(٣٥) جمهرة الأمثال : 1 / 164 .
(٣٦) ديوانه: 4/ 611 .
(٣٧) مجمع الأمثال :2/ 106 .
(٣٨) ديوانه: 4/ 694 .
(٣٩) مجمع الأمثال :1/ 159.
(٤٠) ديوانه: 4/ 580 .
(٤١) جمهرة الأمثال : 1/ 424 .
(٤٢) مجمع الأمثال :1/ 255 . ويقال : من ناقضة غَزْلها وهي امرأة كانت من قريش يقال لها : أم رَيْطَة بنت كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة وهي التي قيل فيها " خَرْقَاء وجَدَتْ صُوفاً " والتي قال الله عز و جل فيها {ولا تَكُونُوا كالتِّي نَقَضَتْ غَزْلَها من بعد قوّة أنكاثا } النحل : 92 . قال المفسرون : كانت هذه المرأة تغزل وتأمر جَوَارِيَهَا أن يغزلن ثم تنقض وتأمرهن أن ينقضن ما فتلن وأمررن فضرب بها المثل في الْخُرْقِ .
(٤٣) ديوانه: 5/ 752.
(٤٤) مجمع الأمثال :1 / 284. (فقع بقرقرة) لأنه لا يمتنع على من اجتناهُ ويقال : بل لأنه يُوطَأ بالأرجل والفَقْع : الكَمْأة البيضاء : والجمع فَقْعَة مثل جَبْء وجَبْأة ويقال : حمام فقيع إذا كان أَبْيَضَ ويُشَبَّهُ الرجلُ الذليلُ بالفَقْع فيقال : هو فقعُ قَرْقَر لأن الدوابَّ تنجله بأرجلها قال النابغة يهجو النعمان بن المنذر :

حَدَثُونِي بني الشَّقِيقَةِ مَا يَمْ نَعُ فَقْعاً بِقَرْقَرٍ أن يَزُولاَ

لأن الفَقْعة لا أصول لها ولا أغصان ويقال " فلان فقعةُ القاعِ " .

(٤٥) ديوانه: 5/ 891 .

(٤٦) ينظر : مجمع الأمثال : 2/ 152 .

(٤٧) ديوانه: 5/ 752.

(٤٨) مجمع الأمثال : 2/ 149 .

(٤٩) ديوانه: 4/ 695 .

(٥٠) ينظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، دار الساقي، الطبعة الرابعة 1422هـ/ 2001م : 9/ 102 .

(٥١) ديوانه (على أطلال الحيرة) : 1/ 107. جاء في معجم البلدان :

الحِيرَةُ: بالكسر ثم السكون وراء، مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف زعمها أن بحر فارس كان يتصل به وبالحيرة الخَوَرنق بقرب منها مما يلي الشرق على نحو ميل والسدير في وسط البنتة التي بينها وبين الشام كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ثم من لخم النعمان وآبائه . وأما وصفُهم إياها بالبياض فإنما أرادوا حسن العمارة . وقيل سميت الحيرة لأن تُبعاً الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم: حيروا به لي : أقيموا به .

(٥٢) ديوانه: 3 / 511 .

(٥٣) ديوانه : 1/ 107 .

(٥٤) ديوانه: 2/ 335 .

(٥٥) ديوانه: 1/ 224 . ربُّ كندة، فهو حجر بن عمرو . تاريخ اليعقوبي : 1/ 231 . رب الخورنق، والخورنق : قصر كان بظهر الحيرة وقد اختلفوا في بانيه فقال الهيثم بن عدي الذي أمر ببناء الخورنق النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن علي بن نصر بن الحارث بن عمرو بن لَخْم بن عدي بن مرَة بن أدَد بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرُب بن قحطان ملك ثمانين سنة وبنى الخورنق في ستين سنة بناه له رجل من الروم يقال له: سِنمار . معجم البلدان : 2 / 401 .

(٥٦) ديوانه: 6/ 980 .

(٥٧) الأبرش : كان من أفضل ملوك العرب رأيًا، وأبعدهم مغارًا، وأشدِّهم نكايةً، وأظهرهم حزمًا، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق وضمَّ إليه العرب، وغزا بالجيوش، وكانت منازله بين الحيرة والأنبار وبقية هيت ونواحيتها، وعين التمر وأطراف البَر . تاريخ الطبري : 439 .

(٥٨) الشعر العراقي الحديث، مرحلة وتطور، د. جلال الخياط ، بيروت 1970م : 105 .

(٥٩) ديوانه: 1/ 188.

(٦٠) ديوانه: 4/ 626.

(٦١) ديوانه: 1/ 107 .

(٦٢) ديوانه: 1/ 107 .

(٦٣) ديوانه: 2/ 334 .

(٦٤) ديوانه: 7/ 1115. و(نينوى) بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح النون والواو بوزن طيطوى وهي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل . معجم البلدان : 5 / 339

(٦٥) ديوانه: 1/ 188 .

(٦٦) ديوانه: 4/ 675 .

(٦٧) ينظر : معجم البلدان : 2/ 8 .

(٦٨) ديوانه: 4/ 580 . سينا بكسر أوله ويفتح اسم موضع بالشام يضاف إليه الطور فيقال طور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه السلام ونودي فيه وهو كثير الشجر . معجم البلدان : 3 / 300.
(٦٩) ديوانه: 4/ 586 .

مصادر البحث

- تاريخ الطبري، للطبري، مراجعة وتصحيح وضبط نخبة من العلماء الأجلاء، الطبعة الرابعة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان 1403هـ - 1983م .
- تاريخ اليعقوبي، لليعقوبي، دار صادر، بيروت – لبنان .
- تطور الشعر العربي الحديث في العراق، اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج، د. علي عباس علوان، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية 1975م .
- خزانة الأدب، للبغدادي، تحقيق محمد نبيل طريفي، وأميل بديع اليعقوب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1998م .
- ديوان الجواهري، محمد مهدي الجواهري . الأعمال الكاملة ط2، بغداد 2008م .
- شرح المعلقات السبع، للإمام الأديب القاضي المحقق ابن عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني، دار الحياة .
- شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى، شرح وتحقيق حجر عاصي، دار الفكر العربي، بيروت .
- شرح ديوان عنترة بن شداد، شرح وتعليق عباس إبراهيم، الطبعة الثانية، دار الفكر العربيّ – بيروت 1998م .
- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني المعتزلي (ت 656هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة 1960م .
- الشعر العراقي الحديث، مرحلة وتطور، د. جلال الخياط ، بيروت 1970م
- الشعر والشعراء، لابن قتيبة عبد الله بن مسلم (ت276هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة 1977م .
- لغة الشعر عند الجواهري، الدكتور علي ناصر غالب، توزيع دار الصادق، العراق – بابل 1426هـ - 2005م
- مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت .
- معجم البلدان، للحمويّ، دار الفكر، بيروت .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الدكتور جواد علي ، دار الساقي ، الطبعة الرابعة 1422هـ/ 2001م .
- نقد الشعر في العراق بين التأثرية والمنهجية (رؤية في تطور النَّصّ النقدي)، د. عناد غزوان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1999م